فيما الغت الاردن واليمن مهرجاناتها ومصر احتفالاتها الثورة المصرية ردا على المجازر الاسرائيلية:

مهرجانات المغرب تثير جدلا سياسيا وصحافيا كبيرا

الرباط ـ «القدس العربي»
ـ من الطاهر الطويل:

منى واصف

لطفي بوشناق

حافظت المهرجانات الثقافية والفنية المنظمة بالمغرب على مواعيد انعقادها في الزمان والمكان، ولم يتم إلغاء أي واحد منها، ولم يكن للأحداث المؤلمة الجارية في فلسطين ولبنان أي انعكاس عليها. وتفادى منظمو تلك التظاهرات أي ربط بينها وبين المجازر الإسرائيلية البشعة التي ترتكب يوميا في حق الإخوة اللبنانيين والفلسطينيين. وأرجع الكثيرون هذه المسألة إلى تأثير الموقف المغربي الرسمي من العدوان الصهيوني، وهو الموقف الذي اعتبره بعض المراقبين «خجولا وأقرب إلى الحياد والعتاب المهذب»، وذلك بخلاف المساندة الشعبية المطلقة التي يعبر عنها المغاربة باستمرار تجاه القضايا القومية والإنسانية وفي مقدمتها المأساة الفلسطينية واللبنانية. يضاف إلى ذلك، أن مُناصري المهرجانات الفنية يتمسكون بها بشكل قوي، ويرفضون أن تخلف الموعد، وحجتهم أنهم يخشون أن يُفسر الأمر بكونه انصياعا ورضوخا لضغوط «الإسلاميين» و«الظلاميين».

والملاحظ أن المهرجانات الفنية والموسيقية وجدت دعما إعلاميا قويا من لدن صحافة أحزاب الأغلبية، باعتبار تلك التظاهرات ـ في نظرهم ـ إحدى تجليات العمل الحكومي وكذا عمل المجتمع المدني الذي يحظى بعطف المؤسسة التنفيذية والمؤسسات المنتخبة (البلديات) والعمالات (المحافظات). وفي المقابل، اقتصرت جل الانتقادات الموجهة إليها على صحافة الإسلاميين ممثلة في جريدة «التجديد» المقربة من حزب العدالة والتنمية المعارض، التي عبرت عن رأيها بوضوح من خلال الكلمات التالية: «إذا كانت الجمهورية المصرية ألغت احتفالات عيد الثورة المصرية وهو أكبر عيد وطني لمصر، وعلقت الأردن أفراح مهرجان جرش الذي يحتفل بيوبيله الفضي هذا العام، وأوقفت اليمن مهرجان صنعاء الذي ينتظر أن يستقطب آلاف السياح الأجانب، فلماذا يتمادى المغرب في الاستمرار في تنظيم هذه المهرجانات التي وصلت هذه السنة الى 100 مهرجان، إلى درجة وصلنا فيها إلى حالة إسهال فني أوشك أن يكون فيها لكل مدينة أو قرية مهرجانها؟ ولماذا تصر أغلب مهرجاناتنا على أن تستقبل فنانين بلا قضية ولا يضيرهم ما يقع في فلسطين أو لبنان أو العراق، ولا يهمهم إلا أن يروا الجماهير صرعى «كأنهم أعجاز نخل خاوية»؟

***

أكبر تظاهرة فنية نظمت خلال الأيام القليلة الماضية هي مهرجان الدار البيضاء الذي ذكرت بعض المصادر أنه تتبعه حوالي ثلاثة ملايين مواطن، وحرص رئيس الوزراء إدريس جطو على حضوره شخصيا تأكيدا على دعم الحكومة له، وذهبت معظم الصحف إلى القول إن هذا المهرجان شهد نجاحا كبيرا، مستدلين على ذلك باستجابة الفنانين المدعوين له وكذا حجم المتابعة الجماهيرية. وكتب بوطيب حنون في عموده اليومي 4/1كلمة بصحيفة «بيان اليوم» (الناطقة باسم حزب «التقدم والاشتراكية» الحكومي) ان مهرجان الدار البيضاء انتصر على تفكير الأصوليين المتحجرين، وأطل جذابا لامعا يستهوي الناظرين، تحج إليه الآلاف من الجماهير المتعطشة للاستمتاع بلحظات جميلة تنسيهم كدر الوقت، وتطهرهم من رجس همومهم اليومية التي تتراكم في دواخلهم على امتداد العام. وتابع الكاتب قوله: الشاب خالد، ملك الراي المعروف عالميا، جاء إلى الدار البيضاء، مزهوا برونق الحياة، ليقف على خشبة أعدت في الهواء الطلق بحي سيدي البرنوصي، متحديا جدار الرهبانية الجديدة، وأفكارها البائرة، العالقة باللحى المنفوشة خارج الأسوار الحجرية، التي تمنع الناس من الاستمتاع بالفرجة.. الشاب خالد كان رائعا.. وجمهور الدار البيضاء كان رائعا أيضا.. وكانت الأصوات في تموجاتها تغري بالاستمتاع في ذلك الفضاء المفتوح على عشق الحياة والصلاة في محراب الفن الجميل. وتساءل صاحب العمود: لماذا يريد أولئك الذين ارتضوا الحزن حياة لهم أن يحرموا الآخرين من حقهم في الاقتران بالمظاهر الأخرى للحياة؟ وذلك في إشارة إلى مؤاخذة البعض على مهرجان الدار البيضاء تزامنه مع الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان وفلسطين. وذكّر الكاتب بموقف نجم «الراي» الجزائري من الموضوع قائلا: «الشاب خالد عبّر عن ذلك بوضوح، وهو يجيب على سؤال استفزازي لملتح قفز من الدار البيضاء إلى لبنان، قبل أن يطلب من المغني تحويل الحفل إلى ساحة للبكاء وضرب الصدر والظهر بالسلاسل على الطريقة الشيعية، احتجاجا على ما تقوم به إسرائيل. الشاب خالد كان محقا، عندما ذكّر صاحبنا بأن لكل مقام مقالاً، ولكل واحد دورا يقوم به، فالفنان ليس مقاتلا وليس مناضلا سياسيا وليس من حاملي السلاح. ومن ثمة، فمهمته ليست هي القتل ولكنها مهمة إيقاظ الأحاسيس الطيبة والضمير في كل إنسان، بحثا عن السلم والأمن والتعايش».

ولكن أحد كتاب جريدة «بيان اليوم» نفسها كان له رأي مغاير في الموضوع، يتعلق الأمر بمحمد شمسي الذي كتب في عموده اليومي «هَرَّسْ دَكْدَكْ» (بمعنى كَسِّر.. حَطِّمْ) ما يلي: «تتواصل فعاليات الدار البيضاء رغم تواصل الاعتداءات البشعة لجيش الاحتلال الاسرائيلي على فلسطين ولبنان. وواضح أن وتيرة المهرجان تتزايد بتزايد وتيرة الاعتداءات. «زِد القصف، زِد القصاير (الحفلات)»، ولاحظ الكاتب أنه «ربما كان حريا بالمنظمين أن يستحوا قليلا ويعملوا على إيقاف «نشاطهم» احتراما لروح الشهداء وتفعيلا لـ«الطعيمة» (الطعام) والأخوة التي تجمعهم بالشعبين اللبناني والفلسطيني... لكن بعض ذوي الوجوه القاسحة (الصلبة) وجدوا مخرجاً، وأكدوا أنهم سيتضامنون مع أشقائهم اللبنانيين والفلسطينيين بالموسيقى... وربما هذا أقل من أضعف الإيمان أن يصبح الأخ يتضامن مع أخيه بـ«الدرديك على القعدة» وبـ«حك جر» و«زد دردك عاود دردك» (كلمات دارجة تدل على الرقص والغناء الشعبيين).

ووجهت صحيفة «التجديد» المقربة من حزب العدالة والتنمية الإسلامية انتقادا للمغنية الجزائرية فضيلة التي قالت إنها بدت منزعجة من الأسئلة التي طرحت عليها في المؤتمر الصحافي بمناسبة مشاركتها في مهرجان المدينة. وذكرت الصحيفة نفسها أن تلك المغنية امتنعت عن الإجابة عن بعض تساؤلات الصحافيين والرد على ملاحظاتهم وانتقاداتهم التي تهم مسألة مساهمة الفن في التقريب بين الحكومات العربية ووضعية المرأة العربية التي قالت إنها ممثلتها في الديار الأوروبية على المستوى الفني، ورأيها في التصعيد الصهيوني ضد فلسطين ولبنان، واكتفت بالقول كرد على سؤال صحافي في ما يخص توقيت المهرجان الذي تزامن مع القصف الصهيوني لفلسطين ولبنان «انها فنانة ولا علاقة لها بالسياسة، وأنها لا يهمها لا المغرب ولا الجزائر ولا فلسطين ولا لبنان هي جاءت إلى الدار البيضاء للغناء فقط، وهذا مهرجان وذاك شيء آخر».

ومن جهة أخرى، ذكرت الصحيفة المشار إليها أن الفنانة المصرية داليا البحيري التي حضرت العرض الأولي لفيلم «السفارة في العمارة»، تسببت في إحراج منظمي مهرجان الدار البيضاء حينما طلبت من الجمهور الحاضر قراءة الفاتحة ترحما على أرواح الشهداء في لبنان وفلسطين.

على صعيد ثان، أفادت صحيفة «النهار المغربية» (المستقلة) أن سيارة عامل (محافظ) عمالة «البرنوصي ـ عين السبع» تعرضت للرشق بالحجارة من لدن بضعة شباب احتجاجا على عدم توقيفه لفعاليات مهرجان مدينة الدار البيضاء، بالنظر إلى التطورات الخطيرة المرتبطة بما يجري حاليا بلبنان من قصف مكثف واستهداف المدنيين من قبل آلة الحرب الإسرائيلية. وأضافت الصحيفة ذاتها أن حي «البرنوصي» شهد خلال حفل اختتام المهرجان أعمال شغب وعنف بعد أن اعتلى العشرات من الشباب الهائج منصة الحفل التي كانت تضم إحدى الفرق الغنائية الشعبية، ومنعوا مواصلة فقرات السهرة الختامية، مطالبين بتوقيف تلك «المهزلة» ـ حسب تعبيرهم ـ رافعين شعارات تضامن مع الفلسطينيين واللبنانيين. ونقلت الصحيفة المشار إليها عن شهود عيان قولهم إن أعمال العنف التي رافقت انطلاق مهرجان الدار البيضاء منذ بداية العدوان الإسرائيلي على لبنان ليس لأصحابها هو المغرب، سواء بالنسبة للشباب والفتيات الذين يعيشون في أرض الوطن أو أبناء وبنات المغاربة العائدين إلى أرض الوطن بمناسبة العطلة. وهذه المهرجانات والتظاهرات تصبح مناسبة للتعبير عن الفرحة والانتماء إلى الوطن ويؤكد هذا الحضور الجماهيري أي ملايين المغاربة وضيوفهم من الأجانب الذين يتوافدون على بلادنا كسياح، أن المغرب لا يقبل الخضوع للظلاميين الذين لهم في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حكاية طويلة مع المحرمات». ولاحظ الكاتب أنه من خلال المهرجانات الفنية، «يؤكد المغاربة رغبتهم في الحياة ورفضهم الاستسلام لجماعات الظلاميين ممن يعتقدون أن أحلامهم وأوهامهم يمكن أن يتبناها المغاربة ويجعلوا منها خارطة طريقهم السياسي ونمطا للحياة، حياة القرون الوسطى أو إعادة (تجربة) الطالبان في أفغانستان حيث كانوا يسعون إلى تحريم الحياة على المسلمات والمسلمين. ولهذا لا مستقبل لمن يريدون منع المغاربة من الحياة».

وسخرت صحيفة «الاتحاد الاشتراكي» من البيان الذي أصدره أعضاء فرع حزب العدالة والتنمية بمدينة خنيفرة، احتجاجا على مهرجان احتفالي منظم من لدن المجلس البلدي لتلك المدينة الواقعة وسط البلاد، واستنكر البيان كون ذلك المهرجان يأتي متزامنا مع العدوان الصهيوني على الشعبين اللبناني والفلسطيني. وبعدما أوردت الصحيفة المذكورة مقتطفات من البيان المشار إليه كتبت ان القارئ اللبيب يستطيع أن يدرك مباشرة أن تلك المقاطع تنتمي إلى خطاب حزب العدالة والتنمية الذي يشن هذه الأيام غارات جوية ـ وطقسية أيضا ـ على المهرجانات، ويسعى جاهدا إلى تحريض المواطنين على مقاطعتها، مادام لم يجرؤ على تحريمها صراحة. واستغربت كون البيان موجها ضد المجلس البلدي لخنيفرة، مع أن رئيسه ينتمي إلى حزب العدالة والتنمية.

وعلى المنوال نفسه، كتب عبد الحميد بنداود في صحيفة «الاتحاد الاشتراكي»: «يبدو أن هرج المتأسلمين عن المهرجانات لا يريد أن ينتهي، فالمهرجانات عندهم هي كالحافلات تلتصق فيها الأجساد بالأجساد والأجسام بالأجسام، لذلك فالحل هو أن نلغي الحافلات ونركب على أقدامنا أو نركب الحمير والبغال. والمهرجانات عندهم أيضا يرقص فيها الجميع بطريقة متفسخة متحللين من كل قيد أو شرط، لذلك على الراقصين إما أن يرقصوا وهم مكبلون ومقيدون ومحنطون ومعقدون، وإما فإن رقصهم، حسب هؤلاء، لا يؤدي إلا إلى التفسخ والتحلل والتحرم. والمهرجانات عند هؤلاء تُبقي الناس تائهين في الشوارع إلى الساعات الأولى من الصباح، لذلك على المواطنين أن يدخلوا إلى مساكنهم، وإلى أسِرَّتهم باكراً، ويغطوا في النوم باكرا، لأن النَوم أخ الموت، وهؤلاء يعشقون الموت ويحبون المآتم، ويعتاشون من المقابر، لذلك فهم يكرهون الحياة وكل ما يدل على الحياة». وتوقف صاحب المقال عند واقعة الندوة الصحافية التي نظمها الشاب خالد بمناسبة مشاركته في مهرجان الدار البيضاء، وقال إن أحد صحافيي جريدة «التجديد» «اختلط عليه الأمر بين الشاب خالد والشيخ عمرو خالد، فأراد أن ينزع منه إجابات تقول بتحريم المهرجانات لما يرافقها من مجون وانحلال، ويدفعه إلى الإضراب عن الحياة وعن الغناء، إلى أن يتم تحرير فلسطين ولبنان والعراق والشيشان، وإلى أن يتم تحريم الجينز والتلفزيون والسينما والشيشة!

***

من جانب آخر، توقفت صحيفة «الاتحاد الاشتراكي» عند خبر إقدام اتحاد كتاب المغرب، ثم اتحاد الكتاب الجزائريين، ثم اتحاد الكتاب التونسيين، وفي يوم واحد تقريبا، وكل واحد على حدة، على إصدار بيانات استنكارية تدين وتندد وتشجب العدوان الإسرائيلي على لبنان، وهي بيانات وإن كانت تسجل الموقف إلا أنها تدخل في سياق أضعف الإيمان. وحسب الصحيفة المذكورة فإنه كان المعول على هؤلاء الذين ينتمون إلى الصفوة والنخبة، ويعتبرون زبدة الأمة، أن يفتحوا معركة التفكير والنقاش، والمُدارسة والتحاور لفهم ما يجري، وتسليط الأضواء على الحال والمآل، مع ما يستدعيه ذلك، من عقد الندوات، وتنظيم اللقاءات الفكرية والمنتديات الثقافية، بدل الخلود إلى صمت المحبطين، والاستقالة عن الإدلاء بالرأي وبالفكر كالعاجزين، والانغماس في اللغو الشفوي.

وعلقت الصحيفة بالقول إن العزلة الاختيارية التي يتنعم بها المفكرون والمثقفون اليوم، واستقالتهم من هموم واهتمامات المجتمع والأمة، ولّدت فراغا فكريا وثقافيا، يتم استغلاله من طرف أرباع وأنصاف المتعلمين، من محترفي الشفوي، والذين يريدون أن يعودوا بالأمة إلى ما قبل اكتشاف الكتابة، أي إلى ما بعد اكتشاف النار بقليل».

ورصدت صحيفة «لبراسيون» الناطقة بالفرنسية آراء بعض المثقفين والنشطاء الحقوقيين من قضية العدوان الإسرائيلي على لبنان، وهكذا سجل المفكر بنسالم حميش أنها المرة الأولى التي تقوم فيها منظمة بتوجيه ضربات قوية إلى داخل إسرائيل، وأن الإصابة شملت المدن الشمالية لهذه الدولة. إن الأمر ـ في رأيه ـ يتعلق بحرب بين تنظيم هو «حزب الله» وأقوى دولة في المنطقة، وبذلك يجب مراجعة مقولة «إسرائيل الدولة التي لا تُقهر».

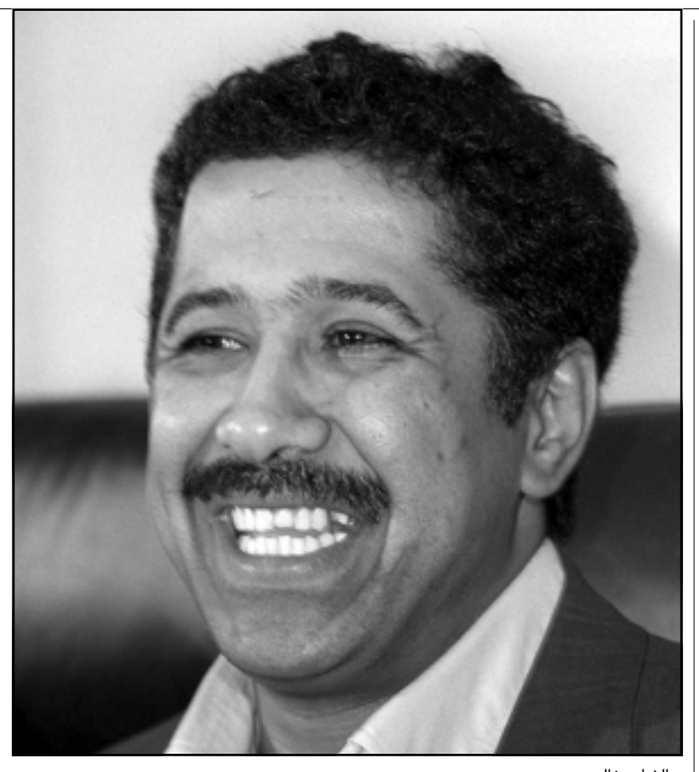

الشاب خالد

أما الباحث الاجتماعي محمد عيادي فقال إن ما يجري حاليا في لبنان لا ينحصر في صراع إسرائيلي عربي أو إسرائيلي ـ فلسطيني، ولكننا نحن إزاء رهانات عالمية تتحكم فيها الاستراتيجية الأمريكية، وتمثل فيها إسرائيل عنصرا أساسيا. وبذلك، فالدرس المستخلص من الأحداث الجارية أننا مقبلون على إعادة تشكيل المنطقة من الناحية الجيوستراتيجية، وهي عملية تشمل ما يجري في العراق وفلسطين ولبنان وأفغانستان.

***

ولم تفوت صحيفة «الاتحاد الاشتراكي» فرصة حضور الفنانة العربية منى واصف إلى المغرب، للمشاركة في مهرجان العاصمة الرباط الذي افتتح مساء الثلاثاء، فسألتها عن رؤيتها لما يجري بلبنان الذي يعيش أسبوعه الثاني تحت العدوان الإسرائيلي، فكان جواب منى واصف بشأن هذه التطورات على النحو التالي: «قلبي يدمى على الأطفال والنساء والرجال الذين قتلوا... على البيوت، على الطرق، على البنية التحتية، على كل شيء في هذا اللبنان الجميل... لكننا في الوقت نفسه نرى أن هناك شيئا جميلا رغم كل هذا الدمار.. وهو هذه المقاومة المزهرة المقاومة الوردية التي استطاعت ـ على الأقل ـ أن ترينا أننا نستطيع أن نضرب إسرائيل. يعني أن عدونا ليس جنيا، بل هو بشر نستطيع أن نتعامل معه بالسلاح». وأضافت أن الرسالة التي يجب أن يوجهها الفنان العربي إلى صمود الشعبين اللبناني والفلسطيني في المحنة التي يمران بها هي أن يعمل أكثر مما يتكلم. وعن تفسيرها لتركيز القصف الإسرائيلي، قبل أيام، على الإعلام: صحفيين وبنيات، قالت: «إن العدو الإسرائيلي يريد أن يعيد وسائل الإعلام بهذا البلد عشرين سنة إلى الوراء، لأن الإعلام إعلام متطور في لبنان، وبيروت اجتازت محنة الحرب الأهلية وتقدمت بناء وعمرانا ومعلوماتيا... ويريد أن يعيدها إلى الوراء. وأشارت إلى أن العدو لا يريد للبنان أن يتقدم، لا يريده أن يكون متميزا. وأكدت قائلة ان العدو الإسرائيلي طبعا هو يستهدف ويعرف ماذا يريد ويضرب بطريقة ليست عشوائية إطلاقا، بل هي مدروسة. وعن تقييمها للموقف العربي تجاه ما يجري في المنطقة، تمنت أن تعود بعد 500 سنة في يوم من الأيام تقول: وأن أطلع من القبر لمدة ساعة لأرى كيف سيؤرخون لهذه المرحلة. عادة كلما قدمنا عملا تاريخيا يتنطح البعض أن هذا العمل كتب بيد كاتب لا يدري أو مؤرخ عميل... لأننا دائما في الأعمال التاريخية نظهر المساوئ أو الانكسارات التي حصلت. أنا أريد أن أعرف، الآن، كيف سيؤرخون لهذه المرحلة التي ليست لها تسمية بالنسبة إلي لا تراجيديا ولا دراما ولا مأساة ولا كوميديا سوداء. شيء بتعبير درامي أكبر من أي تعبير درامي، كيف سيؤرخون لهذه المرحلة ومن سيتهمون بأنه أرخ بطريقة غلط أو بطريقة متحاملة ومن سيبرأ... من سيبرىء من في النهاية»؟!

***

وأصدرت «جمعية مهرجان الرباط» بيانا أشارت فيه إلى أنه على إثر الأحداث المأساوية التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط بسبب العدوان الإسرائيلي الغاشم على الشعبين الفلسطيني واللبناني، قررت إدارة المهرجان في دورتها الثانية عشرة التي تنظم ما بين 25 تموز (يوليو) و4 آب (أغسطس) إلغاء جميع الأنشطة التي تعكس مظاهر الفرح والاحتفال من البرنامج العام للمهرجان، والاحتفاظ فقط بفضاءات الحوار الثقافي والمسرح والسينما، تضامنا مع الشعبين الفلسطيني واللبناني اللذين يمران بمحنة قاسية نتيجة لهذا العدوان. وأضاف البيان أن الإدارة إذ تتمنى أن يتفهم جمهور مهرجان الرباط، وبالأخص ساكنة العاصمة، الذي كان دائما سندنا الأول في استمرارية هذا المهرجان منذ دورته الأولى عام 1995، والمعروف بتفاعله مع مختلف القضايا الوطنية والقومية، نتمنى أن يتم تفهم هذا التغيير الاضطراري، مناشدين جميع قوى السلام في العالم بالتدخل من خلال إجبار الكيان الإسرائيلي على الإيقاف الفوري لهذا العدوان.

تبقى، في الأخير، الإشارة إلى الحرب الإلكترونية التي شنها خلال الأسابيع القليلة المنصرمة عدد من الشباب المغاربة على مواقع إسرائيلية بشبكة الإنترنت، وتسببت في تدمير حوالي 700 موقع، وذلك كطريقة للتنديد بالعدوان الصهيوني على فلسطين ولبنان. وردّ عليها «الهاكرز» الإسرائيليون بالهجوم على 400 موقع مغربي ونشروا فيها فيروسات مدمّرة لمحتوياتها وقاعدة المعطيات بها.

تداعيات

دروس.. لا تنسى

علي كنعان*

■ الدرس الأول والأخير أتعلمه من بيروت والجنوب اللبناني، من الحجارة والشجر والعصافير والأطفال وأسرار المقاومة وهي تعز على أي وصف... إنه درس الكرامة المتحررة من القهر والذل والإحباط.

وثمة دروس تكميلية أتعلمها من نار الغضب التي يشعلها في نفسي هتلر القرن الحادي والعشرين، وهو يتلذذ بمشاهد لحم الأطفال ودمهم المتناثر تحت أنقاض البيوت. أما كلابه المسعورة في أطراف غزة ومدن الضفة فإنهم يؤكدون أن قلعتهم العنصرية محكومة بالانهيار والزوال... المهم ألاَّ ننسى ولا نكتفي بالتفرج أو الاستنكار الخجول!

ولكي أعصم نفسي وأحصّنَ ذاكرتي من النسيان، لا بد لي من الاعتراف بغلطة العمر، وعلي أن أبذل المستحيل لتصحيحها.

إني أعترف، وأنا أتخطى جحيم السبعين، أني جاهل بأبسط مفردات (الديمقراطية) البوشية وأصولها الصهيونية المسلحة بآلة القتل والتدمير وتمزيق أجساد الأطفال. وفي مواجهة هذا الاكتشاف الفظيع، وإن جاءني متأخرا جدا، فقد قررت أن أختطف الساعات القليلة الباقية لأتعلم شيئًا عمليا مجديا، ليكون سياج الحياة الواقي حتى لا تبقى الكلمة عزلاء منتهكة...

لا أدري إن كان عشق الحرية وأطياف الديمقراطية وأحلام العدالة..، لا أدري إن كانت هذه القيم المثالية الزاهية جاءتني مع أول بيت من الشعر أو مع أول نشوة في الحب، فلم أعمل على تحصينها وحمايتها؛ لكني أذكر بمرارة جارحة أن جهالتي، الملفوفة باستلاب مرضي متوارث منذ القدم، هي التي جعلتني أبتهج لعملية تفريخ (الديمقراطية) في أفغانستان، كما فرحت لزوال الدكتاتورية واستنساخ صيغة متطورة من تلك الديمقراطية النازية/البوشية ذاتها لتطبيقها على العراق الذبيح، وإن كنت أستغرب ولا أطيق أن تحمل الطائرات والدبابات وشركات النهب الأمريكية مثل هذه العروس الأسطورية.

النموذج الدموي القاتل والمهين الذي صاغته (واحة الديمقراطية) في فلسطين المغتصبة لم يكن كافيا لاكتشاف مدى جهلي ولم يدفعني إلى محاولة التعلم وفك أولى حروف الأبجدية من جديد، فظللت سادرا كسادات هذه الأمة وغالبية عبيدها ورعاياها، مقتديا بخلاصة ما رواه السلف الصالح: «كما أنتم يولى عليكم.. وأطيعوا جلاَّديكم وأولي الأمر منكم.. إلى ما شاء الله»!

لكن دروس بيروت، وشظايا بيوتها الجنوبية وأشلاء أطفالها ونسائها وشيوخها وهي تنهمر فوق رأسي وعيني وتسحق قلبي وأعصابي تحت أهوالها، جعلتني أصحو على فظاعة تلك الكذبة المدوِّخة التي عشتها سبعين جحيما متواصلا، وأنا ـ وكثير من أبناء جيلي كذلك ـ مثقل بالرؤى والمشاعر والأفكار والأيديولوجيات المزوَّرة. ولعلي أستثني هنا غسان كنفاني وخليل حاوي وتوفيق يوسف عواد ومن لحق بهم من العشاق والمجانين الحالمين.

كيف تَعلَّمنا، واقتنعنا بكرامات ذلك العلم الذي فاق كرامات الصوفية والأولياء، أن الجيوش وحدها خلقت لتحرير الوطن والدفاع عن ترابه ورياحينه وأطفاله ومقدساته؟! كيف جرى كل ذلك وتم تحت أبصارنا العشواء وبصائرنا الذاهلة؟ أذكر في خريف 1968 أن أحد الحالمين المجانين المأخوذين بفيتنام والحرب الشعبية حاول أن يخطو أولى خطواته الخجلى في ذلك الدرب، وكانت عمليات الفداء الفلسطينية قد فاجأته وسبقته. لذلك، راح يشكل مجموعات صغيرة (كل واحدة أقل من عشرة) للتدرب على أعمال المقاومة والدفاع المدني وحفر الاستحكامات في خط الدفاع القريب لدى الخاصرة الجنوبية الغربية من دمشق. كنا نستهجن المحاولة بشعور حانق ونقول بهمس ساخر: «إذا وصلت قوات العدو الصهيوني إلى مشارف دمشق وتم تهديدها بالاحتلال، فما فائدة هذه الحفر والكمائن الصغيرة ومهازل التدريب على سلاح فردي بسيط»؟ ولعل الشاعر الفلسطيني الصديق خالد أبو خالد ما زال يحتفظ بواحدة من تلك الذكريات المرة التي عشناها معا، ذات خريف، على مقربة من سفوح جبل الشيخ، ولم يجرؤ أحد منا على الاعتراف برهبة ذلك العراء أمام صاحبه.

اليوم تذكرني أوصال بيروت الدامية بغلطة العمر التي لا تغتفر. كان علي أن أواجه تلك التجربة العملية بوعي عميق وجد صارم والتزام مصيري. ولعل الشاعر أبو خالد كان أوفر مني حظا إذ زار فيتنام بعد ذلك، وتمرس بتجربة أغنى وأقسى من تجربتي البائسة التي لم تدم طويلا.

لكن السؤال الصاعق: ما الذي يريده هذا الطاغية الهمجي بوش الصغير؟ أي سعار يأكل أحشاءه حتى يرتكب كل هذه الجرائم المخزية؟ لا جواب عندي إلا أن الرجل مريض بداء وحشي، وعلى حكماء العالم ـ إن كان هناك من حكماء ـ أن يضعوه في محجر صحي مغلق حتى يشفى أو يختنق بسعاره.

ولعل في الكلمات الآتية شيئا من العزاء. كلمات قرأتها ولا أذكر اسم قائلها، لكنها بالتأكيد لأستاذ جليل جدير بالتحية والاحترام، إذ يقول: «لا شك عندي أن بوش قد أعاد البشرية أكثر من ستين عاما إلى الوراء، إلى زمن النازية، وزمن القتل من أجل غطرسة فارغة وأهداف حمقاء... حروب بوش جعلت العالم أقل أمنا، والنفط أعلى سعرا، والإرهاب أكثر انتشارا، والفكر والثقافة أكثر ترديا وانحسارا...

إن بوش هو أكبر لعنة في تاريخ العالم الحديث، رجل يدوس كل القيم والأخلاق والجثث بينما عيناه شاخصتان على أهداف غبية لا تستحق شيئا من كل هذه الوحشية المفرطة..».

وعلى هامش جرائم ذلك البوش، يبدو لي أن حقد الأنظمة العربية على لبنان ينبع من مخاوفهم من أن ينقل عدوى التحرر إلى شعوبهم المقموعة؛ ذلك أن ما يتمتع به لبنان من وفاق وطني ومناخ ديمقراطي وتفاهم حضاري، بين جميع أحزابه ومذاهبه وأبنائه، يثير غيظ تلك الأنظمة ونقمتها إلى حد التواطؤ مع الأعداء. لكن سورية الغالية والمغلولة تظل الاستثناء الوحيد المذهل: إن أركان النظام هناك مشغولون بمهرجان الغناء العالمي في قلعة حلب، ومن لا يصدق فليتابع مباهج الفضائية السورية!

* كاتب من سورية يقيم في الدنمرك

مهرجان الاسكندرية يعرض فيلما ايطاليا مأخوذا عن رواية منعتها الرقابة المصرية

■ القاهرة (ا ف ب)– يعرض في الدورة 22 لمهرجان الاسكندرية السينمائي الذي تبدا في 5 ايلول/سبتمبر المقبل الفيلم الايطالي الاسباني المغربي المشترك «الخبز الحافي» المقتبس عن رواية تحمل نفس الاسم نفسه للروائي المغربي الراحل محمد شكري منعت الرقابة توزيعها في مصر.

وقال مدير الاعلام في المهرجان سمير شحادة ان الفيلم «سيعرض ضمن فعاليات المهرجان وضمن برنامج استضافة الممثلة الايطالية مارتيسيا تيديتشي التي تقوم ببطولته».

والفيلم الذي تشارك في انتاجه الدول الثلاث قام بكتابة السيناريو له واخراجه رشيد بن الحاج الايطالي الجزائري الاصل الذي شارك ايضا بالتمثيل في الفيلم.

وكانت الرواية التي اقتبس منها الفيلم منعت من التوزيع من مصر «بسبب الاباحية الجنسية التي تتضمنها» والتي «تسيء» كما قيل فيه حينه للمجتمعات العربية والاسلامية. وقامت عدة دول عربية اخرى غير مصر بمنع توزيع الرواية ايضا.

وهذه الرواية التي عرفت العالم بالروائي المغربي محمد شكري هي اول اعماله الروائية وتدور احداثها في مدينة طنجة الساحلية حيث تروي جزأ من السيرة الذاتية للمؤلف.

ويصور الفيلم حالة الفقر التي كان يعيشها المؤلف والمجتمع المغربي بصفة عامة في الوقت الذي يعيش فيه المحتلون من فرنسيين واسبان حياة رغد ونعمة وكذلك الطبقة الغنية المتحالفة معهم من ابناء المغرب.

وقد وافق المؤلف قبل وفاته عام 2003 على سيناريو الفيلم كما وافق على الظهور في المشهد الختامي له بالقرب من قبر شقيقه في الوقت الذي يقوم به طفل صغير بالبحث عن قطعة من الخبز بين القبور. وكان فيلم «الخبز الحافي» فاز بجائزة «الجمهور» في مهرجان مونبلييه للسينما المتوسطية.

ويفتتح مهرجان الاسكندرية في الخامس من ايلول/سبتمبر بالفيلم الفرنسي «اغتيال بن بركة» للمخرج سيرج لوبيرون وتستمر فعالياته حتى 11 من الشهر نفسه.